عنوان البرنامج: مدخل إلى الفكر العقدي السني
الوحدة الثالثة: الأعلام الكبار للفكر الأشعري
الدرس الأول: أبو بكر الباقلاني
اسم المحاضر: الدكتور جمال علال البختي

أبو بكر الباقلاني

سنخصص هذه الوحدة للتعريف بعلماء الأشعرية الكبار، والبدء سيكون بعلماء المرحلة الأولى لتطور الأشعرية، وبرائدهم الإمام الباقلاني.

حياته ومؤلفاته:

أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد القاضي المعروف بابن الباقلاني، والملقب «بسيف السنة»، «ولسان الأمة». ولد بالبصرة، ولم تحدِّد المصادر تاريخ هذا الميلاد، ورجح بعضهم أن ميلاده كان عام: 338هـ. وسمع في مرحلة التلمذة من كبار العلماء مثل أبي أحمد الحسين النيسابوري وغيره. ونُقِل أنه درس على أبي بكر بن مجاهد تلميذ الأشعري الأصول، وعلى أبي بكر الأبهري الفقه.

وقد أرسل عضد الدولة (أحد سلاطين بني بويه زمن الخليفة العباسي الطائع لله) إلى الباقلاني وهو شاب ليعرف أدلّة أهل السنة والجماعة على غيرهم، فتوجه إليه أبو بكر، وأفادت رحلته هذه إلى شيراز في إظهار نبوغه، وغلَبَتِه على مخالفيه بالحجة، فقرّبه عضد الدولة، وصحِبه معه إلى بغداد لما دخلها، ودفع إليه ابنه صَمْصَام الدولة، ليعلِّمه مذهب أهل السنة.

ثم اختار عضد الدولة، وقيل الخليفة، الطائع لله (363-381هـ) الإمام الباقلاني رسولاً إلى ملك الروم الأعظم باسيل الثاني (366هـ) ليظهر به رفعة الإسلام، وكان لملك الروم رسوم في الدخول عليه أباها الباقلاني، وجرت له في القسطنطينية مناظرات مع رجال الدين الروم، ظهر عليهم فيها، فطلبوا من الملك إكرامه وإخراجه مخافة فتنته للنصارى.

وبعد وفاة عضد الدولة تولى ابنه صَمصام الدولة السلطة، وعرف للباقلاني قدره، فزادت قدم الباقلاني رسوخاً ورفعةً حتى وفاة صمصام الدولة سنة 376هـ .

قام الباقلاني بالتدريس في بغداد فكانت حلقته عظيمة، واشتهر بالقدرة على الجدل وإفحام الخصوم من الرافضة والمعتزلة والجهمية. يقول ابن خلكان: «وكان كثير التطويل في المناظرة، مشهورا بذلك عند الجماعة، وجرى يوما بينه وبين أبي سعيد الهاروني مناظرة، فأكثر القاضي أبو بكر ...فيها الكلام ووسع العبارة وزاد في الإسهاب، ثم التفت إلى الحاضرين وقال: اشهدوا علي أنه إن أعاد ما قلت لا غير، لم أطالبه بالجواب. فقال الهاروني: اشهدوا علي أنه إن أعاد كلام نفسه سلَّمت له ما قال».

وأجمعت المصادر على أنه كان في الفقه مالكي المذهب، وأكد القاضي عياض ذلك مرارا في «المدارك» حيث أثبت رئاسته للمذهب في وقته. ودرس عليه جماعة لا تعد أصول اللغة، وأصول الدين، والفقه، وخرج منهم من الأئمة: أبو محمد عبد الوهاب بن نصر المالكي، وعلي بن محمد الحربي، وأبو جعفر السِّمْنَاني، وأبو عبد الله الأزدي، وأبو طاهر الواعظ، وغيرهم. ومن المغرب: أبو عمرو بن سعد، وأبو عمران الفاسي. قال أبو عمران: «رحلت إلى بغداد وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس عند أبي الحسن القابسي وأبي محمد الأصيلي، وكانا عالمين بالأصول، فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر ورأيت كلامه في الأصول والفقه مع المؤالف والمخالف حقرت نفسي، وقلت: لا أعلم من العلم شيئا، ورجعت عنده كالمبتدئ».

كان القاضي غزير التأليف يكتب كل ليلة خمسا وثلاثين ورقة تصنيفا من حفظه، فإذا صلى الفجر دفع ما كتبه إلى بعض أصحابه، وأمر بقراءته عليه، وأملى عليه الزيادات. وقد كثرت تصانيفه في أنواع العلوم ولا سيما الردود على الجهمية والخوارج والكرّاميةِ وغيرِهم من أهل البدع، ومن هذه المصنفات: «شرح اللمع للأشعري»، «كيفية الاستشهاد في الرد على أهل الجحد والعناد»، و«الأصول الكبير في الفقه»، و«مناقب الأئمة ونقض المطاعن على سلف الأمة»، و«الملل والنحل»، و«هداية المسترشدين» و«المقنع في أصول الدين»، و«نقض النقض»، و«كتاب البيان عن الفَرْقِ بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنرنجيات»، و«الانتصار»، و«التقريب والإرشاد»، و«دقائق الكلام»، و«الكسب والتبصرة»، و«تمهيد الدلائل وتلخيص الأوائل»، و«إعجاز القرآن»، و«الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به»، بالإضافة إلى العديد من المؤلفات النفيسة القيمة.

أما عن وفاته فيقول صاحب «الوفيات»: «وتوفي...[ببغداد] آخر يوم السبت ودفن يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة ببغداد (304هـ)، رحمه الله، وصلى عليه ابنه الحسن، ودفنه في داره بدرب المجوس، ثم نُقل بعد ذلك فدفن في مقبرة باب حرب»، قرب قبر ابن حنبل.

منهجه وأهم آرائه العقدية :

قام ابن خلدون في «مقدمته» بمتابعة تاريخية لتطور المذهب الأشعري، فبعد حديثه عن الدور الحاسم الذي اضطلع به أبو الحسن الأشعري لإرساء قواعد المذهب، انتقل إلى أقرب تلاميذه ومؤسس

المذهب حقيقة بعده ألا وهو أبو بكر الباقلاني، فذكر أنه: «تصدّر للإمامة في طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار، وذلك مثل: إثبات الجوهر الفرد والخلاء، وأن العرض لا يقوم بالعرض، وأنه لا يبقى زمانين... وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول».

لقد كان أبو بكر الباقلاني –بالفعل– المؤسس الحقيقي لمدرسة الأشاعرة العقلانية هذه المدرسة التي اقتدت بمنهج الأشعري في المرحلة «اللّمعية»، وأضافت للمذهب قضايا ومباحث جديدة، كقول الباقلاني بأحوال أبي هاشم المعتزلي، وقوله بأن للقدرة الحادثة تأثيرا، وأنها تصلح للضدين، وإنكاره الفعل الطبيعي للأشياء في ذاتها.

أما في خصوص المحتويات الكبرى لعقيدة الباقلاني، فنسجل أن من أهم أنظاره وإضافاته في المذهب اهتمامه في مبحث الذات بتحليل خواص المحدَث وسائر الموجودات المخلوقة الممكنة؛ ليصل إلى

إثبات قِدَم الواجب سبحانه، وأنه الخالق الذي يفتقر إليه كل شيء في وجوده. وقد بنى ذلك على قاعدة ونظرية الجوهر الفرد، الذي ترجع إليه الممكنات في انقسامها. فلما كان الجوهر ثابت الحدوث لتحوُّله وتغيُّره دلَّ على أنه ليس بقديم، وأنه محتاج إلى قديم لوجوده.

وفي مبحث الصفات حرص القاضي على إثبات أنها صفات لا هي هو ولا هي غيره...وانفرد عن الأشاعرة بإثبات أن صفة البقاء عين الوجود. بينما توقف في الصفات الخبرية، كما مال فيها إلى الاتباع وترك التأويل.

أما أهم ما يستوقف في آرائه المتعلقة بالوجود الإنساني فجعله للقدرة الإنسانية –كما قلنا قبل– مدخلا في الفعل والتأثير عكس ما ذهب إليه معظم الأشاعرة، مما قربه نوعا ما من الطرح الاعتزالي.

وقد تميز الباقلاني أيضا في طرح مبدإ العادة ونفي السببية، وتزعم القول بأن السببية ليست قسرية بغية الرد على الطبائعيين والماديين وإظهار شمول القدرة الإلهية، وإمكان حدوث المعجزات والخوارق.

ومن جهة أخرى –وعلى مستوى المنهج– مال الباقلاني إلى العقل أكثر، وذلك بفعل ضرورات الجدال، ونظرا لحاجة الاتجاه الأشعري إلى التقوية والدعم، فاضطُر إلى تغليب الجانب العقلاني على الدليل الشرعي الذي انحصرت أهميته عنده في الأمور السمعية. ويعتبر كتابه: «تمهيد الأوائل» خير دليل على توجُّهه هذا، لأن الباقلاني جمع فيه أهم آرائه، واستعمل لإثبات قضاياه كل ما في جعبته من أدلة عقلية سمح له بها اطلاعه الواسع وثقافته الشاملة.

ومن أظهر ما تجليه مؤلفاته أيضا أبحاثه المتقنة في مناقشة النصارى والثنوية واليهود، حيث أظهر عن مستوى رفيع في الردود والمناظرات.